



أحمدك ربي، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، وأصلي وأسلم على محمد وآله، أما بعد:

فإن «أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»^(١).

ومن الآداب المجمع عليها: الأدب مع المشايخ والعلماء، يقول ابن حزم يرحمه الله: «اتفقوا على توقير أهل القرآن والإسلام والنبي ﷺ، وكذلك الخليفة والفاضل والعالم»^(٢).

(١) تضمين من «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩١) لابن القيم يرحمه الله.

(٢) انظر: «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٨) لابن مفلح يرحمه الله.

وما ذلك إلا لحرمة وحق يمتازون بها. أعني: مشايخ العلم، يقول ابن سعدي يرحمه الله في: «الفتاوى»: «وعلى المتعلم أن يوقّر معلّمه، ويتأدّب معه غاية ما يقدر عليه؛ لما له من الحق العام والخاص:

* أما العام: فإن معلم الخير قد استعد لنفع الخلق بتعليمه وفتواه، فحقه على الناس حق المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يرشد الناس لأمر دينهم ويُعلّمهم ما جهلوا، ويُنبّههم لما عنه غفلوا، ويحصل من الخير وانقماص الشر، ونشر الدين والمعارف النافعة: ما هو من أنفع شيء للموحدّين، ولمن أتى من بعدهم من ذريتهم وغيرهم. فلو لا العلم كان الناس كالبهائم في ظلّمة يتخبطون. فهو النور الذي يُهتدى به في الظلمات، والحياة للقلوب والأرواح والدين والدنيا، والبلد الذي ليس فيه من يُبين للناس أمور دينهم، ويرشدهم لما يتتابهون مما هم في غاية الضرورة إليه، قد فقد أهله من ضروراتهم ومصالحهم ما يضر فقده بدينهم ودنياهم.

فمن كان هذا إحسانه، وأثره على الخلق: كيف لا يجب على كل مسلم محبته وتوقيره، والقيام بحقوقه؟!

* وأما حقه الخاص على المتعلم: فلما بذّله من تعليمه، والحرص على ما يرشده ويوصله إلى أعلى الدرجات، فليس نفع الآباء والأمهات نظيراً لنفع المعلّمين المربين للناس بصغار العلم قبل كباره، الباذلين نفائس أوقاتهم، وصفوة أفكارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرّون عليها.

وإذا كان من أحسن إلى الإنسان بهديّة مالية ينتفع بها ثم تزول وتذهب: له حق كبير على المحسن إليه، فما الظن بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوّعة، الباقي نفعها ما دام حيّاً وبعد مماته، المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا.

فحينئذٍ يعرف أن له من الحق والتوقير وحسن الأدب معه، والوقوف مع إشارته، وعدم الخروج عما أشار إليه مما ينفعه من الأمور التي قد جرّبها وهو أعرف بها منه من كفايات التعليم ونحوها ما ليس لغيره» أ.هـ.

وحفظاً لحق العالم، وحرمة الشيخ: كان تقييدُ جملة آداب، تلزم المتعلم المتتلمذ مع شيخه وأستاذه، والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الأدب الأول: اختيار الشيخ:

يقول ابن جماعة -يرحمه الله- في: «التذكرة»: «ينبغي للطالب أن يُقدّم النظر، ويستخير الله: فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه».

وقد شدّد السلف في ذلك؛ لأن الأمر دين، يقول النووي -يرحمه الله- في مقدمة «المجموع شرح المهذب»: «قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

ولاختيار الشيخ مقاييس عدّة، إلا أنها ترجع إلى مقياسين:

الأول: العلم، وله جانبان:

* أولهما: الخدق في العلم، والأهليّة فيه. يقول النووي -رحمه الله- في «المجموع»: «ولا يأخذ العلم -أي: المتعلم- إلا ممن كملت أهليّته».

* والثاني: المعرفة بطرائق التعليم، وإجادة التربية في التعليم. يقول ابن بدران -رحمه الله- في: «المدخل»: «ينبغي أن يكون -أي: المعلم- حكيماً؛ يتصرف في طرق التعليم بحسب ما يراه موافقاً لاستعداد المتعلم، وإلا ضاع الوقت بقليل من الفائدة، وربما لم توجد الفائدة أصلاً. وطرق التعليم أمر ذوقي، وأمانة مؤدعة عند الأساتذة؛ فمن أداها أثيب على أدائها ومن جحدّها كان مطالباً بها» أ.هـ.

وهذا الجانب -أعني ثاني جانبي العلم- سماه الشاطبي رحمه الله بـ (التربية العلمية) حيث قال في: «الموافقات»: «... ويَتَصَوَّرُ ذلك فيمن يَتَّبِعُ بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يَحْتَمِلُ عقله إلا صغارها، على ضد التربية المشروعة، فمثل هذا يوقع في مصائب، ومن أجلها قال علي عليه السلام: «حَدِّثُوا الناس بما يفهمون، اتحبون أن يكذب الله ورسوله»، وقد يصير ذلك فتنة على بعض

السامعين... فلا يصح للعالم في التربية العلمية إلا المحافظة على هذه المعاني، وإلا لم يكن مربياً، واحتاج هو إلى عالم يريه».

والثاني: صلاحية الشيخ للاقتداء به في الدين والخلق وما إليهما. وإلى ذلك أشار ابن جماعة يرحمه الله في: «التذكرة» بقوله: «ولا يرغب الطالب في زيادة العلم -أي: من شيخ- مع نقص في ورع أو دين، أو عدم خلق جميل».

وتلك الصلاحية في الاقتداء مستفيض اشتراطها للمتعلم، لما لها من آثار عليه، ويقول ابن الجوزي يرحمه الله في: «صيد الخاطر» حاكياً حاله في ذلك: «لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبتته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه».

فينبغي على طالب العلم إعمال ذينك المقياسين عند إرادة التلمذ على أحد من الناس، ولإعمالهما طرق:

* منها: مشاورة أهل النصح والعلم، يقول الماوردي يرحمه الله في: «أدب الدنيا والدين»: «من الحزم لكل ذي لب، ألا يبرم أمراً، ولا يَمْضِي عِزْماً، إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه ﷺ، مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... فإذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال:

إحداهنّ: عقل كامل، مع تجربة سالفة، فإنه بكثرة التجارب تصح الرؤية...

والخصلة الثانية: أن يكون ذا دين وتقى؛ فإن ذلك عماد كل صلاح، وباب كل نجاح، ومن غلب عليه الدين، فهو مأمون السريرة، موفق العزيمة..

والخصلة الثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة، ويمحضان الرأي...

والخصلة الرابعة: أن يكون سليم الفكر، من همّ قاطع، وغمّ شاغل؛ فإن مَنْ عارضت فكره شوائب الهموم، لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر.

والخصلة الخامسة: ألا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده؛ فإن الأغراض جاذبة، والهوى صاذ، والرأي إذا عارضه الهوى، وجاذبته الأغراض فسد... أ.هـ.

*** ومنها:** الاختبار للعلم والدين، وهو مسلك متبع لكن تحوطه ضوابط، جاء في: «سير أعلام النبلاء» للذهبي في ترجمة محمد بن داود الظاهري أن أبا الحسن الداودي قال: «لما جلس أبو بكر بن داود للفتوى بعد والده استصغروه، فدرسوا عليه من سألته عن حد السكر، ومتى يعد الانسان سكراناً؟ فقال: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم، فاستحسن ذلك منه». وقال إبراهيم النخعي يرحمه الله - كما في: «التمهيد» لابن عبد البر -: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى هديه وسمته وصلاته، ثم أخذوا عنه».

وعلى كل فطرق الكشف عن تلك الصفات كثيرة، وللمحدثين في ذلك شأن أشار إليه المعلمي يرحمه الله في: «الأنوار الكاشفة» بقوله: «وكان أهل العلم يشددون في اختيار الرواة أبلغ التشديد، جاء عن بعضهم - أظنه: الحسن بن صالح بن حي - أنه قال: «كنا إذا أردنا أن نسمع الحديث من رجل سألنا عن حاله حتى يقال: أتريدون أن تزوجه؟».

وربما تطلب البحث عن الشيخ المراد وقتاً، فلا يُتبرّم من ذلك، يقول الزرنوجي يرحمه الله في: «تعليم المتعلم»: «قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: سمعت حكيماً من حكماء سمرقند قال: إن واحداً من طلبة العلم شاور معي في طلب العلم، وكان قد عزم على الذهاب إلى بخارى لطلب العلم.

فقال الحكيم: إذا ذهبت إلى بخارى فلا تعجل في الاختلاف إلى الأئمة، وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذاً، فإنك إن ذهبت إلى عالم وبدأت بالسبق عنده ربما لا

يعجبك درسه فتركه وتذهب إلى الآخر؛ فلا يبارك لك - في التعلم.

فتأمل في شهرين في اختيار الأستاذ وشاور؛ حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه، فتثبت عنده، حتى يكون تعلمك مباركاً، وتنتفع بعلمك كثيراً. أ.هـ.

فائدة

قال الإمام ابن مفلح يرحمه الله في: «الآداب الشرعية»: «فصل: في أخذ العلم عن أهله وإن كانوا صغار السن. قال الإمام أحمد: بلغني عن ابن عيينة قال: الغلام أستاذ إذا كان ثقة. وقال علي بن المديني: «لأن أسأل أحمد بن حنبل عن مسألة فيفتني أحب إليّ من أن أسأل أبا عاصم وابن داود، إن العلم ليس بالسن».

وروى الخلال من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: «إن العلم ليس عن حداثة السن ولا قدمه، ولكن الله تعالى يضعه حيث يشاء»...

وكان القراء أصحاب مشورة عمر: كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وقافاً عند كتاب الله، رواه البخاري وغيره.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم: عبد الرحمن بن عوف». قال ابن الجوزي في: «كشف المشكل»: «فيه تنبيه على أخذ العلم من أهله وإن صغرت أسنانهم أو قلت أقدارهم. وقد كان حكيم بن حزام يقرأ على معاذ بن جبل، فقليل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟. فقال: إنما أهلكنا التكبر».

وجاء في: «الجامع» لابن عبد البر يرحمه الله: «الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً».

تنبيه:

قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله - كما في: «شرح علل الترمذي» لابن رجب -

«ثلاثة لا يؤخذ عنهم -يعني: العلم-: المتهم بالكذب، وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته، والرجل الغالب عليه الوهم والغلط».

فاحذر أيها الطالب من المبتدعة الذين يتحاكمون إلى العقل والوجد فإن الأمر دين، يقول ابن عمر رضي الله عنهما -كما في: «الكفاية» للخطيب-: «دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك؛ فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا». ويقول الذهبي يرحمه الله في «سير أعلام النبلاء»: «وإن رأيت المتكلم المبتدع يقول: «دعنا من الكتاب والأحاديث وهات: العقل»؛ فاعلم أنه أبو جهل. وإذا رأيت السالك التوحيدى يقول: «دعنا من النقل ومن العقل وهات: الذوق والوجد»؛ فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة البشر، أو قد حل فيه، فإن جنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه وابرک على صدره وأقرأ عليه آية الكرسي واخنقه».

لكن إذا اضطر المسلمون إلى بعض المبتدعة تعلماً وتعليماً؛ فالحال مختلف، يقول شيخ الإسلام يرحمه الله في: «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢١٢): «فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة خيراً من العكس؛ ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل».

الأدب الثانى: تعظيم الشيخ وإجلاله:

يقول النووي يرحمه الله في مقدمة «المجموع»: «وينبغي أن ينظر -يعني: الطالب- معلمه بعين الاحترام، ويعتقد كمال أهليته، ورجحانه على أكثر طبقاته، فهو أقرب إلى انتفاعه به، ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه».

وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: «اللهم استر عيب معلمى عني، ولا تذهب بركة علمه منى». وقال الشافعى يرحمه الله: «كنت أصفح الورقة بين يدي مالك يرحمه الله صفحاً رفيقاً: هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها».

وقال الربيع: «والله ما اجتأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له».

وأخرج الترمذي في «سننه» عن الرسول ﷺ أنه قال: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، ويعرف لعالمنا حقه) والحديث صحيحه الترمذي، وحسنه المنذري والهيثمي.

وأخرج ابن عبد البر في: «الجامع» عن طاووس بن كيسان يرحمه الله أنه قال: «إن من السنة أن توقر العالم». وأخرج الخطيب في: «الجامع» عن الحسن قال: «رئي ابن عباس يأخذ بركاب أبي بن كعب، فقيل له: أنت ابن عم رسول الله ﷺ تأخذ بركاب رجل من الأنصار؟، فقال: «إنه ينبغي للحبر أن يُعَظَّم ويُشَرَّف».

تنبيه:

قال الماوردي يرحمه الله في: «أدب الدنيا والدين»: «وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبتته؛ فقد قيل لبعض الحكماء: من أذل الناس؟ فقال: «عالم يجري عليه حكم جاهل».

فائدة

ومن إجلال أهل العلم -على قول-: القيام عند مجيئهم، وتقبيل الرأس أو اليد ونحو ذلك. قال البهوتي يرحمه الله في: «كشاف القناع»: «ولا بأس بتقبيل الرأس واليد لأهل العلم والدين ونحوهم؛ لحديث عائشة قالت: «قدم زيد بن حارثة المدينة والرسول ﷺ في بيتي، فأتاه فقرع الباب، فقام إليه النبي ﷺ فاعتنقه وقبله». حسنه الترمذي. وفي حديث ابن عمر في قصة قال فيها: «فدونا من النبي ﷺ فقبلنا يديه» رواه أبو داود. وعن صفوان بن عسال قال: «قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي، فأتيا الرسول ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات -فذكر الحديث إلى قوله: -فقبلنا يده ورجله وقالوا: نشهد أنك نبي» رواه الترمذي.

فياح تقبيل اليد والرأس تديناً وإكراماً واحتراماً، مع أمن الشهوة. وظاهره عدم إباحته لأمر الدنيا، وعليه يحمل النهي».

وقال ابن مفلح يرحمه الله في: «الأداب الشرعية»: «وتباح المعانقة وتقبيل اليد والرأس تديناً وإكراماً واحتراماً مع أمن الشهوة. وظاهر هذا عدم إباحته لأمر الدنيا، واختاره بعض الشافعية، والكراهة أولى، وكذا عند الشافعية تقبيل رجله.

وقال المروذي: سألت أبا عبد الله عن قبلة اليد فقال: «إن كان على طريق التدين، فلا بأس؛ قد قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإن كان على طريق الدنيا فلا، إلا رجلاً يخاف سيفه أو سوطه»... وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي: سألت أبا عبد الله قلت: ترى أن يقبل الرجل رأس الرجل أو يده؟ قال: نعم.

وقال الشيخ تقي الدين -يعني: ابن تيمية-: «تقبيل اليد لم يكونوا يعتادونه إلا قليلاً»، وذكر ما رواه أبو داود وغيره عن ابن عمر أنهم لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم عام موته قبلوا يده.

«ورخصَ فيه أكثر العلماء كأحمد وغيره على وجه الدين، وكرهه آخرون كمالك وغيره. وقال سليمان بن حرب: هي السجدة الصغرى.

وأما ابتداء الإنسان بمد يده للناس ليقبلوها وقصده لذلك، فهذا ينهى عنه بلا نزاع كائناً من كان، بخلاف ما إذا كان المقبل هو المبتدئ بذلك» انتهى كلامه - يعني: «تقي الدين».

ويقول السفاريني يرحمه الله في: «غذاء الألباب»: «والحاصل أن في القيام ثلاث روايات:

أحداها: لا يقام إلا للوالدين؛ لأن الإمام قال في رواية حنبل: لا يقوم أحد لأحد إلا الولد لوالده أو أمه، أما غير الوالدين فلا، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

الثانية: يكره القيام إلا لقادم من سفر؛ لأنه قال في رواية مشي: «لا يقوم أحد لأحد، وأما إذا قدم من سفر فلا أعلم به بأساً إذا كان على التدين محبة في الله، والله أعلم؛ لحديث جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتنقه وقبل بين عينيه».

الثالثة: تؤخذ من نصوصه، وهي موافقة لما قاله الأصحاب: أن يقام للإمام - وقيل: العادل-، وأهل العلم والدين والورع، والنسب والوالدين، ولمن هو أسن منه، وكريم قوم...

وقال الإمام الحافظ ابن الجوزي أعلى الله مناره، وأبقى على عمر الأيام آثاره: «ترك القيام كان شعار السلف، ثم صار ترك القيام كالإهوان بالشخص، فينبغي أن يقام لمن يصلح». قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضوان الله عليه في: «الفتاوى المصرية»: «ينبغي ترك القيام في اللقاء المتكرر والمعتاد ونحوه، لكن إذا اعتاد الناس القيام وقدم من لا يرى كرامته إلا به فلا بأس به. فالقيام دفعاً للعداوة والفساد خير من تركه المفضي إلى الفساد. وينبغي مع هذا أن يسعى في الاصطلاح على متابعة السنة».

وقال ابن القيم يرحمه الله في: «حاشية السنن»: «القيام ينقسم إلى ثلاث مراتب: قيام على رأس الرجل؛ وهو فعل الجبابة. وقيام إليه عند قدومه؛ ولا بأس به. وقيام له عند رؤيته وهو المتنازع فيه».

تنبيه:

لكل شيخ مرتبة تليق به من الإجلال والاحترام، فليس أهل العلم سواء في العلم والعمل، يقول ابن سعدي يرحمه الله -معلقاً على حديث: (انزلوا الناس منازلهم)-: «وأوامر النبي ﷺ وإرشاداته كلها تدور على الحكمة. فمنها هذا الحديث الجامع؛ إذ أمر أن تنزل الناس منازلهم، وذلك في جميع المعاملات، وجميع المخاطبات، والتعلم والتعليم. وهذه المعاني الشرعية، وحفظ مراتب الرجال ومراتب النساء، وتنزيل كل منهم منزلته التي أنزله الله بها؛ مستحسن عقلاً، كما أنه مستحسن شرعاً».

الأدب الثالث: الاعتراف بفضل الشيخ

وإقرار الطالب بأنه اكتسب العلم عنه. يقول الخطيب يرحمه الله في: «الفقيه

والمتفقه: «يجب على المتعلم الاعتراف بفضل الفقيه والإقرار بأن العلم من جهته اكتسبه، وعنه أخذه». وقال أبو بكر الأدفوي رحمه الله - كما في: «الفقيه والمتفقه» - : «إذا تعلم الإنسان من العالم، واستفاد منه الفوائد، فهو له عبد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، وهو: يوشع بن نون، ولم يكن مملوكاً له، وإنما كان متلميذاً له، متبعاً له، فجعله الله فتاه لذلك».

وقال ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «أن يعرف - أي: الطالب - له - يعني: الشيخ - حقه، ولا ينسى له فضله. وقال شعبة: «كنت إذا سمعت من الرجل الحديث؛ كنت له عبداً ما يحبى». وقال: «ما سمعت من أحد شيئاً؛ إلا واختلفت إليه أكثر مما سمعت منه».

تنبيه:

قال الماوردي رحمه الله في: «أدب الدنيا والدين»: «ولا يُظهر - أي: الطالب - له - يعني: الشيخ - الاستكفاء - يعني: طلب الكفاية - منه، والاستغناء عنه؛ فإن في ذلك كفراً لنعمته، واستخفافاً بحقه. وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه؛ لجودة ذكائه، وحدة خاطره، فقصد من يعلمه بالإعانات - أي: إيقاعه في المشقة - له، والاعتراض عليه، ازدراءً - أي: احتقاراً - به، وتبكيئاً - أي: تسكيئاً - له، فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبي البطحاء:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وهذه من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم، أن يصيروا عند من علموه مستجهلين، وعند من قدموه مسترذلين. وقال صالح بن عبد القدوس:

وإن عناء أن تُعلم جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيئ من أتى به إذا لم يكن منه عليه تَنَدُّمٌ

الأدب الرابع: الدعاء للشيخ وشكره والثناء عليه:

يقول ابن جماعة رحمه الله في: «التذكرة» - ذاكراً أديباً للطالب مع الشيخ -: «وينبغي أن يدعو له مدة حياته،... وأن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقیصة...». ويقول ابن سعدي - رحمه الله - في: «الفتاوى»: «وينبغي للمتعلّم أن يحسن الأدب مع معلمه، ويحمد الله إذ يسر له من يُعلّمه من جهله، ويحييه من موته، ويوقظه من سَنَتِهِ، وينتَهز الفرصة كل وقت في الأخذ عنه، ويكثر من الدعاء له حاضراً وغائباً؛ فإن النبي ﷺ قال: (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه)، وأي معروف أعظم من معروف العلم والنصح والإرشاد!، فكل مسألة استفيدت عن الإنسان فما فوقها حصل بها نفع لتعلمها وغيره؛ فإنه معروف وحسنات تجري لصاحبها» أ.هـ.

ويقول شيخ الإسلام يرحمه الله في «مجموع الفتاوى»: «وإذا كان الرجل قد علّمه أستاذ عرف قدر إحسانه إليه وشكره».

وجاء في: «مناقب الإمام أبي حنيفة» للخوارزمي: أن أبا حنيفة رحمه الله قال: «ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمني علماً». وقال يحيى القطان رحمه الله - كما في: «الانتقاء» لابن عبد البر -: «أنا أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي». وقال الإمام أحمد رحمه الله - كما في ترجمته - : «ما بتُّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي، وأستغفر له».

ومن نواقض هذا الأدب ما حكاه الشوكاني يرحمه الله في: «البدر الطالع» عن السيد أحمد بن علي الصنعاني؛ بقوله: «وأكبُّ على الاشتغال عليّ نحو عشر سنين مع جماعة من الطلبة ثم جرى بينه وبين بعضهم ما يجري بين أمثالهم من المنافسة؛ فانزعج. ومع كثرة تخيله ظن أنني مؤثر لمن نافسه عليه. فصار بعد ذلك يروي ما قد حفظه عني من اجتهاداتي الجارية على نمط الدليل التي يخالف ما عليه غالب من لا تمييز له. وكان لديه كتاب لي عارية أحسنت إليه بعاريته، فرأى فيه بخطي في مسألة الفرقة

الناجية كلاماً مضمونه أنهم ليسوا بعض هذه المذاهب الإسلامية على التعيين، بل هم من تمسك بالشريعة المطهرة واهتدى بهدي المصطفى ﷺ، على أي مذهب كان، وفي أي عصر وجد. ودفعت قول من قال: إنهم فرقته؛ كما وقع لكثير من المتعصبين.

فأقام هذا القيامة، وما زال يعرضه على كل من له اشتغال بالعلم، فلم يوافقه أحد على ذلك فعاد يعرضه على المقصرين والعوام، ويوهمهم بأوهام لا حقيقة لها؛ فكادت تثور فتنة وقى الله شرها، ثم طلبت منه إرجاع كتابي فما ساعد.

كل هذا؛ وله من الفهم والعرفان نصيب تام، وهو لا يخفى عليه خطأ نفسه وبطلان ما زعمه. ولم يرع حق التعليم، وبعد ذلك ترك الاشتغال بالعلم ولم يبق عليه من رونقه شيء. ورام أن يعود للقراءة عليّ فما ساعدته، وأرجع الكتاب المشار إليه بعد سنين، ومدحني بأبيات، وأظهر الندم على ما سلف منه، عفى الله عنه» أ.هـ.

تنبيه:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «وإذا أوقفه الشيخ على دقيقة من أدب، أو نقيصة صدرت منه، وكان يعرفه من قبل؛ فلا يظهر أنه كان عارفاً به، وغفل عنه، بل يشكر الشيخ على إفادته ذلك، واعتنائه بأمره، فإن كان له في ذلك عذر، وكان إعلام الشيخ به أصلح؛ فلا بأس به، وإلا تركه؛ إلا أن يترتب على ترك بيان العذر مفسدة، فيتعين إعلامه به».

الأدب الخامس: التواضع للشيخ:

يقول الماوردي رحمه الله في «أدب الدنيا والدين»: «اعلم أن للمتعلم في بيان تعلمه ملقاً. أي: تودداً وتذلاً، إن استعملها غنم، وإن تركها ندم وحرم؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره؛ وبإظهار مكنونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار». ويقول ابن جماعة رحمه الله في «التذكرة»: «ويعلم - أي الطالب - أن ذله لشيخه عزّ، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة. ويقال إن

الشافعي رحمته الله عوتب على تواضعه للعلماء، فقال:

أَهَيْنُ لَهُمْ نَفْسِي فَهُمْ يَكْرُمُونَهَا وَلَنْ تَكْرُمَ النَّفْسَ الَّتِي لَا تُهَيِّنُهَا
وأخذ ابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته ومرتبته بركاب زيد بن ثابت
الأنصاري. وقال: « هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ». وقال أحمد بن حنبل لخلف
الأحمر: « لا أقعد إلا بين يديك؛ أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه ». وقال الغزالي: « لا
يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع ».

وأخرج الخطيب في «الجامع» عن عبدالله بن المعتز أنه قال: « المتواضع في طلاب
العلم أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً ».

تنبيه:

يقول الغزالي يرحمه الله في: «الإحياء»: « فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على
المعلم، ومن تكبره على المعلم: أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين
المشهورين وهو عين الحماقة؛ فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من
سَنع ضارٍ يفتسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع
النار بالجهل بالله تعالى: أشد من ضراوة كل سَنع، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها
حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان، فلذلك قيل:

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي »

الأدب السادس: حماية عرض الشيخ، والذب عنه:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في: «التذكرة»: « أن يُعظَّم -أي الطالب- حرمة -يعني:
شيخه-، ويرد غييته، ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس ». وقال
النووي رحمه الله في: « الأذكار »: « اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها،
ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق

ذلك المجلس، فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو من أهل الفضل والصلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر.

وينبغي أن لا يتهيب الطالب من دفع الغيبة عن شيخه، يقول الإمام مالك يرحمه الله - كما في: «المدخل» لابن الحاج -: «إذا حضرت أمراً ليس بطاعة لله، ولا تقدر أن تنهى عنه فتتح عنهم، واتركهم لقول رسول الله ﷺ: (لا يمنع رجلاً هيئة الناس أن يقول بحق إذا علمه، أو شهده، أو سمعه) أ.هـ.

فائدة

قال الإمام النووي يرحمه الله في «الأذكار»: «اعلم أن الغيبة، كما يحرم على المغتاب ذكرها يحرم على السامع استماعها وإقرارها. فيجب على من سمع إنساناً يتدبّر بغيبة محرمة: أن ينهأ، إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام آخر، لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصي، فإن قال بلسانه: «اسكت»، وهو يشتهي بقلبه استمراره، فقال أبو حامد الغزالي: «ذلك نفاق لا يخرج عن الإثم، ولا بد من كراهته بقلبه».

ومتى اضطر إلى المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة، وعجز عن الإنكار، أو أنكر فلم يقبل منه، ولم يمكنه المفارقة بطريق حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر؛ ليشغل عن استماعها، ولا يضره بعد ذلك السماع - أي: بدون قصد - من غير استماع - أي: بقصد - وإصغاء في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]

تنبيه:

يقول ابن الجوزي رحمه الله في «تلبيس إبليس»: «وكم من ساكت عن غيبة المسلمين إذا اغتبيوا عنده فرح قلبه، وهو آثم بذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: الفرح، فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب.

والثاني: لسروره بثلب المسلمين.

والثالث: أنه لا ينكر».

قال أبوسنان الأسدي -كما في «ترتيب المدارك» لعياض-: «إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين؛ يتعلم الوقعة في الناس، متى يفلح؟!». وجاء عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: «لحوم العلماء مسمومة، من شمهها مرض، ومن أكلها مات». وجاء في ترجمة القاضي محمد الزبيدي -كما في: «الدرر الكامنة» لابن حجر-: «قال جمال المصري: «إنه شاهده عند وفاته وقد اندلع لسانه واسودّ، فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محيي الدين النووي رحمهم الله جميعاً».

الأدب السابع: الانقياد للشيخ والتزام رأيه:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «أن ينقاد -أي: الطالب- لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده، ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمة، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته».

ويقول النووي رحمه الله في «المجموع»: «ومن آداب المتعلم أن يتحرى رضى المعلم، وإن خالف رأي نفسه». ويقول الزرنوجي رحمه الله في «تعليم المتعلم»: «يطلب الطالب رضاه -أي: الشيخ-، ويجتنب سخطه، ويمتثل أمره في غير معصية الله تعالى، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ويدخل في أدب الانقياد للشيخ: التسليم للشيخ، يقول الحافظ ابن حجر يرحمه الله في «فتح الباري». -عند ذكره فوائد قصة الحديبية-: «وفي الحديث... أن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال، بل عليه التسليم؛ لأن المتبوع أعرف بمآل الأمور غالباً بكثرة التجربة، ولا سيما مع من هو مؤيد بالوحي».

تنبيه:

قال الإمام الماوردي يرحمه الله في «أدب الدنيا والدين»: «ربما غلا بعض الأتباع في عالمهم، حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل، وإن اعتقاده حجة وإن لم يَحْتَجْ، فيفرضي بهم التسليم له فيما أخذوا عنه، ويؤول بهم ذلك إلى التقصير فيما يصدر منه؛ لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه... ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل، وقد استدل الخصم عليه بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه؛ فأمسك عنه المستدل تعجباً، ولأن شيخه كان محتشماً. أي: ذا أشياع ومنزلة-. وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل رأي هذا الجاهل، ثم أقبل المستدل وقال لي: والله لقد أفحمني بجهله.

وصار الناس المبرئين من هذه الجهالة، من بين مستهزىء أو متعجب، أو مستعيز بالله من جهل مُغْرَب، فهل رأيت كذلك عالماً أو غل في الجهل، وأدل على قلة العقل. وإذا كان المتعلم معتدل الرأي فيمن يأخذ عنه، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه، حتى لا يحمله الإعانات على اعتراض المبكتين، ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين، بريء المتعلم من المذممتين، وسَلِمَ العالم من الجهتين» أ.هـ.

الأدب الثامن: متابعة الشيخ في هديه وسمته:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «وينبغي أن.. يسلك في الصمت والهدي مسلكه، ويراعي في العلم والدين عادته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عاداته

وعباداته، ويتأدب بآدابه، ولا يدع الاقتداء به.

وقال إبراهيم النخعي يرحمه الله - كما في: «الكامل» لابن عدي -: «كنا إذا أردنا أن نأخذ عن شيخ، سألنا عن مطعمه ومشربه ومدخله ومخرجه، فإن كان على استواء أخذنا عنه، وإلا لم نأته».

وفي: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام يرحمه الله: «أن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه كانوا يرحلون إليه؛ فينظرون إلى سمته وهذيه ودلّه؛ فيتشبهون به».

وفي «تاريخ بغداد» للخطيب يرحمه الله في ترجمة: ابن المديني يرحمه الله -: «وعن عباس العنبري أنه قال: كان الناس يكتبون قيامه - يعني: قيام ابن المديني يرحمه الله -، وقعوده، ولباسه وكل شيء يقول ويفعل».

وقال عياض يرحمه الله في «ترتيب المدارك»: «وكان أبو بكر بن إسحاق إذا ذكر عقل أبي علي الثقفي يقول: «ذاك عقل مأخوذ عن الصحابة والتابعين»، وذلك أن أبا علي أقام بسمرقند مدة أربع سنين يأخذ تلك الشمائل من محمد بن نصر المروزي، وأخذها ابن نصر عن يحيى، فلم يكن بخراسان أعقل منه، وأخذها يحيى عن مالك، أقام عليه لأخذها سنة بعد أن فرغ من سماعه، فقليل له في ذلك، فقال: «إنما أقمتم مستفيداً لشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين».

وقال القاضي أبو يعلى يرحمه الله - كما في «شرح منتهى الإرادات» للبهوتي -: روى الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين بن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول: «كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون. - أي: الحديث -، والباقي يتعلمون منه: حُسن الأدب، وحُسن السُّمت».

وقال ابن داسة يرحمه الله - كما في «تذكرة الحفاظ» للذهبي -: «وبلغنا أن أبا داود كان من العلماء العاملين، حتى إن بعض الأئمة قال: كان أبو داود يشبه بأحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته، وكان أحمد يشبه في ذلك بوكيع، وكان وكيع يشبه في

ذلك بسفيان وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بعبداً لله ابن مسعود. وقال علقمة: «كان ابن مسعود يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودله».

تنبيه:

قال الإمام الشاطبي يرحمه الله في «الاعتصام»: «فعلى كل تقدير: لا يتبع أحد من العلماء إلا من حيث هو متوجه نحو الشريعة، قائم بحجتها، حاكم بأحكامها جملة وتفصيلاً، وأنه متى وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات، أو فرع من الفروع؛ لم يكن حاكماً ولا استقام أن يكون مقتدىً به فيما حاد فيه عن صوب الشريعة البتة».

الأدب التاسع: الإقبال على الشيخ بقلب حاضر:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «وينبغي أن يدخل على الشيخ أو يجلس عنده، وقلبه فارغ من الشواغل له، وذهنه صاف، لا في حال نعاس أو غضب، أو جوع، أو عطش، أو نحو ذلك؛ لينشرح صدره لما يقال، ويعي ما يسمعه».

ويقول الغزالي يرحمه الله في «الإحياء»: «ثم لا تغنيه. -يعني: الطالب-. القدرة على الفهم، حتى يلقي السمع وهو شهيد، -حاضر القلب- ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة. فليكن المتعلم لمعلمه كأرض رمت نالت مطراً غزيراً، فتشربت جميع أجزائها، وأذعنت بالكلية لقبوله».

فائدة

يقول الحسن يرحمه الله -كما في «المنتقى من مكارم الأخلاق»-: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تعلّم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه».

الأدب العاشر: لزوم النظافة في مجلس الشيخ:

يقول ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «وينبغي أن يدخل - أي الطالب - على الشيخ كامل الهيئة، متطهر البدن والثياب نظيفهما، بعدما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر، وقطع رائحة كريهة، لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم؛ فإنه مجلس ذكر، واجتماع في عبادة».

فائدة

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله في «صيد الخاطر»: «تلمّحتُ على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم، فمنهم من لا ينظف فمه بالحلال بعد الأكل، ومنهم من لا يُنقى يديه في غسلهما من الزَّهْم. - أي الدسم العالق باليدين ونحوه -، ومنهم من لا يكاد يستاك، وفيهم من لا يكتحل، وفيهم من لا يراعي الإبط، إلى غير ذلك، فيعود هذا الإهمال بالخلل في الدين والدنيا.. وقد كان النبي ﷺ أنظف الناس، وأطيب الناس... وكان يكره أن يُشَمَّ منه ريح ليست طيبة.. وقد قالت الحكماء: «من نظَّف ثوبه؛ قلَّ همّه. ومن طاب ريحه: زاد عقله»... فالمتنظف ينعم نفسه، ويرفع منها عندها.. ثم إنه يقرب من قلوب الخلق، وتحبُّ النفوس، لنظافته وطيبه، وقد كان النبي ﷺ يحب الطيب... وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد، وهم من أقذر الناس، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم... ومن تأمل خصائص الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً في العلم والعمل؛ فبه يكون الاقتداء، وهو الحجة على الخلق» أ.هـ.

الأدب الحادي عشر: لزوم جلسة الأدب مع الشيخ:

وفي ذلك مجموعة آداب أشار إليها ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعا بتواضع وخضوع وسكون وخشوع».

- ويصغي إلى الشيخ، ناظراً إليه، ويقبل بكلية عليه متعقلاً لقوله؛ بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية.
- ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه أو قدامه بغير حاجة، ولا سيما عند بحثه له أو عند كلامه معه؛ فلا ينبغي أن ينظر إلا إليه.
- ولا يضطرب لضجة يسمعها، أو يلتفت إليها، ولا سيما عند بحث له.
- لا ينفض كفيه، ولا يحسر عن ذراعيه.
- ولا يعبث بيديه أو رجله، أو غيرهما من أعضائه.
- ولا يضع يده على لحيته أو فمه، أو يعبث بها في أنفه، أو يستخرج منها شيئاً، ولا يفتح فاه، ولا يقرع سنه.
- ولا يضرب الأرض براحتة، أو يخط عليها بأصابعه.
- ولا يشبك يديه، أو يعبث بازرائه.
- ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط أو مخدة أو درابزين، أو يجعل يده عليها.
- ولا يعتمد على يده إلى ورائه أو جنبه.
- ولا يكثر كلامه من غير حاجة.
- ولا يحكي ما يضحك منه، أو ما فيه بذاءة، أو يتضمن سوء مخاطبة أو سوء أدب. ولا يضحك لغير عجب، ولا يعجب دون الشيخ، فإن غلبه تبسماً (لعلها: تَبَسَّمَ) بغير صوت البتة.
- ولا يكثر التنحنح من غير حاجة.
- ولا ييصق ولا ينخع ما أمكنه، ولا يلفظ النخامة من فيه، بل يأخذها من فيه بمنديل أو خرقة أو طرف ثوبه.
- ويتعاهد تغطية أقدامه، وإرخاء ثيابه، وسكون يديه عند بحثه أو مذاكرته.

- وإذا عطس خفض صوته جهده، وستر وجهه بمنديل أو نحوه.

- وإذا تثائب ستر فاه بعد رده جهده.

... قال بعضهم: ومن تعظيم الشيخ: أن لا يجلس إلى جانبه، ولا على مصلاه أو وسادته. وإن أمره الشيخ بذلك فلا يفعله؛ إلا إذا جزم عليه جزماً يشق عليه مخالفته؛ فلا بأس بامتنال أمره في تلك الحال، ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب» أ.هـ.

وبالجملة: فيراعي الطالب في ذلك أدب الشرع، وحق التعليم، وإلى الثاني أشار النووي يرحمه الله في «المجموع» بقوله: «ويقعد. - أي: الطالب - قعدة المتعلمين، لا قعدة المعلمين».

الأدب الثاني عشر: مراعاة آداب الزيارة مع الشيخ:

كأدب الاستئذان، والسلام، والدخول والخروج، والجلوس، وحال المزور ووقته... وهي آداب عامة، ولكن نذكر جملاً تغفل:

• منها: ما قاله النووي يرحمه الله في «المجموع»: «وإذا دخل جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم».

• ومنها ما ذكره النووي في «المجموع» بقوله: «وأن يدخل أي: الطالب كامل الهيئة، فارغ القلب من الشواغل، متطهراً منتظفاً».

• ومنها ما ذكره النووي أيضاً بقوله: «ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعون إسماعاً محققاً، ويخص الشيخ بزيادة إكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف».

• وقال يرحمه الله: «ولا يتخطى رقاب، ويجلس حيث انتهى به المجلس، إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم والتخطي، أو يعلم من حالهم إثارة ذلك».

• وقال: «ويحرص على القرب من الشيخ ليفهم كلامه فهماً كاملاً بلا مشقة،

وهذا بشرط أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه».

• وقال: «ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة، ولا بين صاحبين إلا برضاهما، وإذا فُسح له قعد وضمَّ نفسه».

• وقال: «ويتأدب مع رفيقه. - أي: الشيخ - وحاضري المجلس، فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ، واحترام لمجلسه».

• ومنها ما ذكره ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «فإن استأذن. - أي: الطالب - بحيث يعلم الشيخ ولم يأذن له انصرف، ولا يكرر الاستئذان. وإن شك في علم الشيخ به. فلا يزيد في الاستئذان فوق ثلاث مرات، أو ثلاث طُرُقَات بالباب أو الحلقة، وليكن طرق الباب خفيفاً بأدب».

• وقال أيضاً: «ومتى دخل، - أي الطالب - على الشيخ في غير المجلس العام... فليسلم ويخرج سريعاً؛ إلا أن يحثه الشيخ على المكث، وإذا مكث فلا يطيل؛ إلا أن يأمره بذلك».

• وقال أيضاً: «وإذا حضر مكان الشيخ فلم يجده جالساً انتظره؛ كيلا يفوت على نفسه درسه؛ فإن كل درس يفوت لا عوض له، ولا يطرق عليه ليخرج إليه».

• وقال أيضاً: «وإذا حضر مكان الشيخ... وكان الشيخ نائماً، صبر حتى يستيقظ، أو ينصرف ثم يعود، والصبر خير له... وكذلك كان السلف يفعلون».

وجاء في ترجمة القاسم بن سلام يرحمه الله - كما في «طبقات المفسرين» والمدخل إلى السنن الكبرى - أنه قال: «ما أتيت عالماً قط، فاستأذنت عليه، ولكن صبرت حتى يخرج إليّ، وتأولت قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات: ٥].»

• وقال ابن جماعة أيضاً: «ولا يطلب من الشيخ... وقتاً خاصاً به دون غيره، وإن

كان الطالب رئيساً كبيراً، لما فيه من الترفع والحمق على الشيخ والطلبة والعلم، وربما استحيى الشيخ منه، فترك لأجله ما هو أهم عنده في ذلك الوقت؛ فلا يفلح الطالب».

الأدب الثالث عشر: مراعاة أدب المحادثة مع الشيخ:

ولذلك قاعدة كشف عنها الخطيب يرحمه الله في «الفقيه والمتفقه» بقوله: «أن ينبله -يعني: الطالب مع شيخه- في الخطاب، ويبجله في الألفاظ، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق، وأفناء- أي: أخلاط- العوام، فقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣] وهذا أصل في أن يُمَيَّز ذو المنزلة بمنزلته، ويُفَرَّقَ بينه وبين من لم يلحق بطبقته».

ونشير هنا إلى شَذَرٍ مهمة في أدب المحادثة مع الشيخ:

● من ذلك ما ذكره الخطيب في «الجامع» بقوله: «وإذا خاطب الطالب المحدث -يعني: الشيخ -عظّمه في خطابه؛ بنسبته إياه إلى العلم، مثل أن يقول له: (أيها العالم)، أو (أيها الحافظ)، ونحو ذلك».

وفي «الجامع» للخطيب رحمه الله أن ربيعة دخل على الوليد بن يزيد - وهو خليفة - قال: يا ربيعة! حدثنا، قال: ما أحدث شيئاً، قال: فلما خرج من عنده قال: ألا تعجبون من هذا الذي يقترح عليّ كما يقترح على المغنيّة: حدثنا يا ربيعة!

وفي «آداب العشرة» لأبي البركات الغزي يرحمه الله؛ أن فتى جذب سفيان بن عيينة من خلفه وقال: يا سفيان! حدثنا، فالتفت سفيان إليه وقال: «يا بُني! من جهل أقدار الرجال، فهو بنفسه أجهل».

● ومن ذلك ما ذكره ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «ولا يسميه. -أي: شيخه- في غيبته باسمه؛ إلا مقروناً بما يُشعر بتعظيمه؛ كقوله: (قال: الشيخ. أو:

الأستاذ كذا)، و(قال شيخنا، أو حجة الإسلام)، ونحو ذلك».

● ومن ذلك ما ذكره ابن جماعة أيضاً بقوله: «وينبغي أن لا يخاطب شيخه بـ (تاء) الخطاب و(كافه). كقوله: قلت، وقولك، ولا يناديه من بُعد، بل يقول: (يا سيدي)، و(يا أستاذي).. و(ما تقولون في كذا؟) و(ما رأيكم في كذا؟)، وشبه ذلك».

● ومن ذلك ما ذكره ابن جماعة بقوله: «وإذا ذكر الشيخ شيئاً، فلا يقل: (هكذا قلت)، أو(خطر لي)، أو (سمعت..)، أو (هكذا قال فلان)؛ إلا أن يعلم إشار الشيخ ذلك. وهكذا لا يقول: (قال فلان خلاف هذا)، و(روى فلان خلافه)، أو (هذا غير صحيح)، ونحو ذلك».

● وقال أيضاً: «وليتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه، ولا يليق خطابه به، مثل: (إيش بك!)، (وفهمت)، و(سمعت)، و(تدري)، و(يا إنسان!)، ونحو ذلك».

● وقال أيضاً: «وإذا أصرَّ الشيخ على قول أو دليل... على خلاف صواب سهواً؛ فلا يغيّر -أي: الطالب- وجهه أو عينيه، أو يشير إلى غيره؛ كالمنكر لما قاله، بل يأخذه ببشر ظاهر، وإن لم يكن الشيخ مصيباً».

● وقال أيضاً: «وكذلك لا يحكي له ما خوطب به غيره، مما لا يليق خطاب الشيخ به؛ وإن كان حاكياً، مثل: (قال فلان لفلان: أنت قليل البر، أو ما عندك خير)، وشبه ذلك؛ بل يقول إذا أراد الحكاية ما جرت العادة بالكناية به، مثل: (قال فلان لفلان الأبعد: قليل البر، وما عندك يا البعيد خير)، وشبه ذلك».

● وقال أيضاً: «ولا يقول له -أي: الشيخ-: (لِمَ؟)، ولا: (لا نُسلم)، ولا: (من نقل هذا؟)، ولا: (أين موضعه؟)، وشبه ذلك».

فإن أراد أي: الطالب، استفادته -أي: الاستفادة-، تلطف في الوصول إلى ذلك،

ثم هو في مجلس آخر أوى على سبيل الاستفادة.

• وقال أيضاً: «لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة، أو جواب سؤال منه أو من غيره، ولا يساوقه فيه، ولا يظهر معرفته به، أو إدراكه له قبل الشيخ، فإن عرض الشيخ عليه ذلك ابتداء، والتمسه منه؛ فلا بأس».

• وقال أيضاً: «وينبغي أن لا يقصر في الإصغاء والتفهم، أو يشغل ذهنه بفكر أو حديث ثم يستعيد الشيخ ما قاله؛ لأن ذلك إساءة أدب، بل يكون مصغياً لكلامه، حاضر الذهن لما يسمعه من أول مرة.

وكان بعض المشايخ لا يعيد لمثل هذا إذا استعاده، ويزيد عقوبة له».

• وقال أيضاً: «وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه، أي كلام كان، ولا يسابقه فيه، ولا يساوقه بل يصبر حتى يفرغ الشيخ كلامه ثم يتكلم».

• وقال أيضاً: «ولا يتحدث أي: الطالب مع غيره؛ والشيخ يتحدث معه، أو مع جماعة المجلس».

الأدب الرابع عشر: مراعاة أدب المناولة مع الشيخ:

وفيه آداب:

• منها ما ذكره ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «إذا ناوله الشيخ شيئاً، تناوله باليمين. وإن ناوله شيئاً؛ ناوله باليمين».

• وقال أيضاً: «وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه مهيباً لفتحه، والقراءة فيه، من غير احتياج إلى إدارته.

فإن كان النظر في موضع معين، فليكن مفتوحاً كذلك، ويعين له المكان».

• وقال أيضاً: «ولا يحذف -أي: الطالب- إليه- يعني: الشيخ- الشيء حذفاً؛ من كتاب أو ورقة، أو غير ذلك».

• وقال أيضاً: «ولا يمد يده إليه إذا كان بعيداً، ولا يحوج الشيخ إلى مدّ يده أيضاً لأخذ منه، أو عطاء، بل يقوم إليه قائماً، ولا يزحف إليه زحفاً. وإذا جلس بين يديه لذلك؛ فلا يقرب منه قريباً كثيراً ينسب فيه إلى سوء أدب».

الأدب الخامس عشر: مراعاة حسن المشي مع الشيخ:

وفيه آداب:

• منها ما ذكره ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل، وخلفه بالنهار؛ إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك لزحمة أو غيرها».

• وقال أيضاً: «ويتقدم -أي: الطالب- عليه -يعني: الشيخ- في المواطىء -جمع: مَوَاطٍأ وهو موضع القدم- المجهولة الحال، كوحل أو حوض، أو المواطىء الخطرة».

• وقال أيضاً: «ولا يمشي بين الشيخ وبين من يحدثه، ويتأخر عنهما إذا تحدثا أو يتقدم، ولا يقرب ولا يستمع ولا يلتفت، فإن أدخله في الحديث، فليأت من جانب آخر، ولا يشق بينهما».

• وقال أيضاً: «ولا يشير عليه ابتداء بالأخذ في طريق حتى يستشير، ويتأدب فيما يستشير الشيخ بالرد إلى رأيه».

الأدب السادس عشر: مراعاة حالة الشيخ:

يقول النووي يرحمه الله في «المجموع»: «ولا يقرأ عليه عند شغل قلب الشيخ ومملّه وغمّه، ونعاسه واستيفازه، ونحو ذلك مما يشق عليه. أو يمنعه استيفاء الشرح».

الأدب السابع عشر: رعاية أولاد الشيخ وتوقيرهم:

لا سيما إن لزم ذلك. يقول الزرنوجي يرحمه الله في «تعليم المتعلم»: «ومن توقيره -يعني: الشيخ- توقير أولاده، ومن يتعلق به. وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين، صاحب: (الهداية)، رحمة الله عليه يحكي أن واحداً من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس، وكان يقوم في خلال الدرس أحياناً، فسألوه عن ذلك فقال: إن ابن أستاذه يلعب مع الصبيان في السُّكة، ويجيء أحياناً إلى باب المسجد، فإذا رأيته أقوم له تعظيماً لأستاذه».

وقال ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة»: «وينبغي أن... يرعى -أي: الطالب- ذريته وأقاربه وأوْدَاءه بعد وفاته».

الأدب الثامن عشر: الصبر على جفوة الشيخ:

يقول النووي يرحمه الله في «المجموع»: «وينبغي أن يصبر -أي: الطالب-، على جفوة شيخه، وسوء خلقه، ولا يصدده ذلك عن ملازمته، واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق، وإذا جفاه الشيخ ابتداء هو بالاعتذار، وأظهر أن الذنب له، والعتب عليه، فذلك أنفع له ديناً ودنياً، وأبقى لقلب شيخه. وقد قالوا: «من لم يصبر على ذلّ التعلم بقي طول عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا»، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ذللّتُ طالباً، فعزّزتُ مطلوباً».

وقال مُعافى بن عمران يرحمه الله -كما في «الجامع» للخطيب-: «مثل الذي يغضب على العالم مثل الذي يغضب على أساطين. أي: سوارى وأعمدة الجامع». وقال الشافعي يرحمه الله -كما في «الجامع» للخطيب-: «قيل لسفيان بن عيينه: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك!». قال: هم حمقى إذن مثلك، أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي».

الأدب التاسع عشر: مراعاة أدب السؤال مع الشيخ:

يقول ابن حجر رحمه الله في «الفتح»: «العلم سؤال وجواب، ومن ثم قيل: حسن السؤال نصف العلم».

● ومن أدب السؤال: ما ذكره ابن سعدي رحمه الله بقوله في «الفتاوى»: «وينبغي للمتعلم أن يلطف بالسؤال، ويرفق بمعلمه، ولا يسأله في حالة ضجر أو ملل أو غضب، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشويش الذهن، وأقل الحالات أن يقع الجواب ناقصاً». ويقول النووي رحمه الله في «المجموع»: «ويغتنم -أي: الطالب- سؤاله -أي: العالم- عند طيب نفسه وفراغه، ويتلطف في سؤاله، ويحسن خطابه».

أخرج ابن عبد البر في «الجامع» عن ابن جريج قال: «لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به».

وفي «الجامع» للخطيب أن الزهري رحمه الله قال: «كان أبو سلمة يسأل ابن عباس، قال: فكان يخزن -أي: يحبس- عنه -أي: بعض الأحاديث- قال: وكان عبيد الله بن عبد الله يلاطفه، فكان يغرُّ غرّاً -أي: فيخرج شيئاً مما كان يحبسه عنه-».

● ومنه ما ذكره النووي في «المجموع» بقوله: «ولا يسأله -يعني: سؤال الطالب الشيخ عن شيء- في غير موضعه؛ إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه».

ويؤكد ابن جماعة في «التذكرة» بقوله: «ولا تسأل عن شيء في غير موضعه إلا لحاجة، أو علم بإيثار الشيخ ذلك».

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الخطيب رحمه الله في «الفقيه والمتفقه» بقوله: «وإن رآه في هم قد عرض له، أو أمر يحول بينه وبين لَبِّه، ويصده عن استيفاء ذكره؛ أمسك عنه، حتى إذا زال ذلك العارض، وعاد إلى المألوف من سكون القلب، وطيب النفس، فحينئذ يسأله، وقد نبّه ﷺ على ذلك في قوله: لا يقض رجل بين رجلين أو بين خصمين وهو غضبان» أ.هـ.

ويؤكد ابن الصلاح يرحمه الله في «أدب المفتي والمستفتي» بقوله: «ولا يسأله وهو قائم أو مستوفى، وعلى حالة ضجر أو هم به، أو غير ذلك مما يشغل القلب».

ومن الأمثلة أيضاً ما أخرجه الخطيب يرحمه الله في «الفقيه والمتفقه»: «أن رجلاً لقي عالماً في السوق يشتري، فأراد أن يسأله، فقال له: «إن عقلي مع دراهمي».

وأخرج الخطيب أيضاً لكن في «الجامع» عن عطاء بن السائب أنه قال: «كان عبدالرحمن بن أبي ليلى يكره أن يُسأل وهو يمشي».

● ومنه ما ذكره ابن جماعة في «التذكرة» بقوله: «ولا ينبغي للطالب أن يكرر سؤال ما يعلمه، ولا استفهام ما يفهمه؛ فإنه يضيع الزمان، وربما أضجر الشيخ».

ويقول الخطيب في «الجامع»: «وليتق إعادة الاستفهام لما قد فهمه، وسؤال التكرار لما قد سمعه وعلمه؛ فإن ذلك يؤدي إلى إضجار الشيوخ». ثم قال: «عن أبي عمر الحوضي قال: «رأيت شعبة بن الحجاج أقام عفاناً في مجلسه مراراً من كثرة ما يكرر عليه»... وقال وكيع: «من استفهم وهو يفهم؛ فهو طرف من الرياء».

● ومنه ما يؤخذ من قول الخطيب يرحمه الله في «الجامع»: «ومن الأدب إذا روى المحدث حديثاً، فعرض للطلاب في خلاله شيء أراد السؤال عنه، أن لا يسأل عنه في تلك الحال، بل يصبر حتى ينهي الراوي حديثه، ثم يسأل عما عرض له».

● ومنه ما ذكره الخطابي يرحمه الله في «معالم السنن» بقوله: «نهى أن يعترض العلماء بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط، ليُستزلوا، ويستسقط رأيهم فيها».

وفي «الجامع» لابن عبدالبر يرحمه الله عن يحيى بن أيوب أنه قال: «بلغني أن أهل العلم كانوا يقولون: «إذا أراد الله أن لا يعلم عبده أشغله بالأغاليط».

وأخرج أيضاً عن الأوزاعي أنه قال: «إذا أراد الله أن يُحرم عبده بركة العلم؛ ألقى على لسانه الأغاليط».

وعن الحسن البصري قال: «شرار عباد الله ينتقون شرار المسائل يُعمون بها عباد الله».

وفي «الجامع» للخطيب أن مالك بن أنس قال: «جاء ابن عجلان إلى زيد بن أسلم، فسأله عن شيء فخلط عليه، فقال له زيد: اذهب فتعلم كيف تسأل، ثم تعال فسل». وفي العقد الفريد: «أن ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة، قال للسائل: امسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس».

● ومنه ما ذكره الحافظ يرحمه الله في «الفتح» بقوله: «ثبت عن جمع من السلف كراهة تكلف المسائل التي يستحيل وقوعها عادة، أو يندر جداً، وإنما كرهوا ذلك لما فيه من التنطع، والقول بالظن، إذ لا يخلو صاحبه من الخطأ».

ويقول الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات»: «إن كثرة السؤال ومتابعة المسائل، بالأبحاث العقلية، والاحتمالات النظرية: مذموم». ويقول أيضاً: «الإكثار من الأسئلة مذموم، والدليل عليه: النقل المستفيض من: الكتاب، والسنة، وكلام السلف الصالح».

جاء في «ترتيب المدارك» لعياض يرحمه الله أن: «رجلاً سأل مالكا عن رجل وطىء دجاجة ميتة. أي: دعسها بقدمه. فأخرجت منها بيضة، فأفقسست البيضة عنده عن فرخ، أياكله؟».

فقال مالك: «سل عما يكون، ودع ما لا يكون». وفيه أيضاً: أن رجلاً سأل مالكا بنحو السابق فلم يُجبه مالك، فقال له: لم لا تجبني يا أبا عبد الله؟ فقال له: «لو سألت عما تنتفع به لأجبتك».

وفي «تذكرة الحفاظ» للذهبي يرحمه الله أن الشعبي سئل، ف قيل له: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: (ذاك عرس ما شهدته). وفي «الأداب الشرعية» لابن مفلح يرحمه الله:

«قال أحمد بن حنبل: «سألني رجل مرة عن يأجوج ومأجوج، أمسلمون هم؟ فقلت له: أَحَكَمْتُ العلم كله حتى تسأل عن ذا!«.

والحاصل أن «من سدَّ باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها فإنه يقل فهمه وعلمه، ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها، ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة فإنه يذم فعله، وهو عين الذي كرهه السلف»، قاله الحافظ يرحمه الله في: «الفتح». ويقول الماوردي يرحمه الله في «أدب الدنيا والدين»: «إذا كان السؤال في موضعه، أزال الشكوك، ونفى الشبهة. وقد قيل لابن عباس رضي الله عنهما: «بِمَ نِلْتَ هذا العلم؟ قال: بلسان سؤال، وقلب عقول».

● ومن أدب السؤال ما ذكره النووي يرحمه الله في «المجموع» بقوله: «وإذا قال له الشيخ: أفهمت؟ فلا يقل: نعم، حتى يتضح له المقصود إيضاحاً جلياً، لئلا يكذب، ويفوته الفهم. ولا يستحي من قوله: لم أفهم؛ لأن استنباته يحصل له مصالح عاجلة وآجلة، فمن العاجلة: حفظه المسألة وسلامته من كذب ونفاق؛ بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه. ومنها اعتقاد الشيخ اعتناء ورغبته وكمال عقله وورعه، وملكه لنفسه وعدم نفاقه. ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائماً، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية. وعن الخليل بن أحمد رحمه الله: منزلة الجهل، بين الحياء والأنفة».

● ومنه ما يؤخذ من قول الخطيب يرحمه الله في «الفيء والمتفقه»: «وليس ينبغي للعامي أن يطالب المفتي بالحجة فيما أجابه به، ولا يقول: لم؟، ولا: كيف؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وفرق تبارك وتعالى بين العامة وأهل العلم فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فإن أحب أن تسكن نفسه بسماع الحجة في ذلك؛ سأل عنها في زمان آخر، ومجلس ثان، أو بعد قبول الفتوى من المفتي مجردة».

وبيّن الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات» علة ذلك بقوله: «إن فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء؛ إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئاً، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم، ولا يجوز ذلك لهم البتة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والمقلد غير عالم، فلا يصح له سؤال أهل الذكر، وإليهم مرجعه في أحكام الدين على الإطلاق، فهم إذن القائمون له مقام الشارع، وأقوالهم قائمة مقام الشارع».

لكن قال ابن القيم يرحمه الله في «أعلام الموقعين»: «عاب بعض الناس ذكر الاستدلال في الفتوى، وهذا العيب أولى بالعيب؟ وهل ذكر قول الله ورسوله إلا طراز الفتوى؟ وقول المفتي ليس بموجب للأخذ به، فإذا ذكر الدليل فقد حرم عليه المستفتي أن يخالفه، وبريء هو من عهدة الفتوى بلا علم».

الأدب العشرون: في الموقف من زلة الشيخ:

حيث لخصه ابن القيم يرحمه الله في «أعلام الموقعين» بقوله: «من له علم بالشرع والواقع: يعلم قطعاً أن الرجل الجليل، الذي له في الإسلام قدم صالح وأثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور؛ بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتَّبَعَ فيها، ولا يجوز أن تُهْذَر مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين».

وشرح ذلك وبيانه من خلال ما يلي:

• أولاً: توطئ الطالب نفسه على أن شيخه قد يغلط، وتقع منه الزلة. فقد أخرج أحمد في: «المسند» أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون). صحّحه الحاكم في «المستدرك» ووافقه الذهبي، ويقول ابن عبد البر رحمه الله في «الجامع»: لا يسلم العالم من الخطأ، فمن أخطأ قليلاً وأصاب

كثيراً فهو العالم، ومن أصاب قليلاً وأخطأ كثيراً فهو جاهل».

وقال سفيان الثوري يرحمه الله - كما في «الكفاية» للخطيب -: «ليس يكاد يفلت من الغلط أحد، إذا كان الغالب على الرجل الحفظ فهو حافظ وإن غلط، وإذا كان الغالب عليه الغلط ترك».

● **ثانياً:** التثبت من وقوع الزلة، يقول المعلمي يرحمه الله في «التنكيل»: «الحكم على العلماء، والرواة أي: تقويماً أو تخطئة يحتاج إلى نظر وتدبر وتثبت، أشد مما يحتاج إلى الحكم في كثير من الخصومات». ويقول ابن سعدي يرحمه الله في «الفتاوى»: «التثبت في سماع الأخبار وتمحيصها، ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها: أصل كبير نافع، أمر الله به ورسوله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]؛ فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم».

ومعرفة كون الزلة زلة في الشرع والديانة مرجعه أهل العلم والفقه، والإنصاف والتقوى. يقول الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات»: «إنه يعني - التمييز في ذلك - من وظائف المجتهدين؛ فهم العارفون بما وافق أو خالف، وأما غيرهم فلا تمييز لهم في هذا المقام، ... فإن قيل: فهل لغير المجتهد من المتفقهين في ذلك ضابط يعتمد أم لا؟ فالجواب: إن له ضابطاً تقريبياً، وهو أن ما كان معدوداً في الأقوال غلطاً وزلاً قليلاً جداً في الشريعة، وغالب الأمر أن أصحابها منفردون بها، قلما يساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحب قول عن عامة الأمة، فليكن اعتقاده أن الحق في المسألة مع السواد الأعظم من المجتهدين، لا مع المقلدين - يعني: غالباً لا باطراد».

وعلى كل فلا بد من جهتين في التثبت:

الأولى: جهة وقوع الخطأ من الشيخ.

الثانية: جهة كون ما ثبت وقوعه خطأ في الشرع والديانة.

● **ثالثاً:** التماس العذر للشيخ عند ثبوت الزلة والخطأ. قال الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات»: «قال ابن النحاس: «وكذا يجب أن يتأول للعلماء، ولا يتأول عليهم الخطأ العظيم، إذا كان لما قالوه وجه». ويقول ابن سعدي يرحمه الله: «وربما يكون وهو الواقع كثيراً. أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائق، ولهم اجتهدهم فيها، معذورون هم والقادح فيهم غير معذور».

قال السبكي يرحمه الله في «قاعدة الجرح والتعديل»: «فإذا كان الرجل ثقة مشهوداً له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يُحمل كلامه، وألفاظ كتاباته على غير ما تعود منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله».

● **رابعاً:** حفظ جاه الشيخ ومقداره، ولو تورط في زلة، يقول ابن القيم يرحمه الله في «مفتاح دار السعادة»: «من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يُحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره، فإن المعصية خبيث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه لا يحتمل أدنى خبيث... وهذا أمر معلوم عند الناس، مستقر في فطرهم: أن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها». ويقول الذهبي يرحمه الله في «السير»: «وإنما يمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطة ولعله رجع عنها. وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق، ولا قوة إلا بالله» ويقول أيضاً: «ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه».

قال ابن سعدي يرحمه الله «٤٣٦/١ مؤلفاته»: «ومن أعظم المحرمات، وأشنع المفاصد: إشاعة عثراتهم، والقذح فيهم في غلطاتهم، وأقبح من هذا وأقبح: إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك، ... ثم لو فرض أن ما أخطأوا أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عذر، لم يكن من الحق والإنصاف: أن تُهدر المحاسن، وتمحى حقوقهم

الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير، وفساده مستطير، أيُّ عالم لم يخطيء، وأيُّ حكيم لم يعثر؟!».

● **خامساً:** عدم متابعة الشيخ في زلته وخطأه. يقول الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات»: «إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له؛ وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك عدَّت زلة، وإلا فلو كانت معتداً بها لم يُجعل لها هذه الرتبة، ولا تُسب إلى صاحبها الزلل فيها... كما أنه لا ينبغي أن يُشنع عليه بها، ولا يُنتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين».

وقال شيخ الإسلام يرحمه الله في «المجموع»: «وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل... وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور، ونعظم أمره تعالى بالطاعة لله ورسوله، ونرعى حقوق المسلمين لا سيما أهل العلم منهم، كما أمر الله ورسوله».

● **سادساً:** مناصحة الشيخ في زلته، ويكتنف ذلك أصلاً:

- **الأول:** التلطف مع الشيخ لتنبيهه إلى خطأه. يقول ابن النجار يرحمه الله في «شرح الكوكب المنير»: «قال ابن عقيل في «الواضح»، «... وإن كان أعلى فليتحَرَّ، ويحتنب القول له: هذا خطأ أو غلط، أو ليس كما تقول. بل يكون قوله له: أرايت إن قال قائل: يلزم على ما ذكرت كذا؟ وإن اعترض على ما ذكرت معترض بكذا؟، فإن نفوس الكرام الرؤساء المقدمين تأبى خشونة الكلام، إذ لا عادة لهم بذلك، وإذا نفرت عميت القلوب، وجُمِدَت الخواطر، وأنسَدَت أبواب الفوائد، فحرمت كل الفوائد بسفه السفه، وتقصير الجاهل في حقوق الصدور».

ويقول ابن سعدي يرحمه الله في «الفتاوى»: «وإذا أخطأ المعلم في شيء فليُنَبِّهه برفق ولطف بحسب المقام، ولا يقول له: (أخطأت) أو (ليس الأمر كما تقول)، بل يأتي بعبارة لطيفة يُدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه».

فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدعى إلى الوصول إلى الصواب، فإن الرد يصحبه سوء الأدب، وإزعاج القلب: يمنع من تصور الصواب، ومن قصده».

ومن التلطف ما ذكره ابن جماعة يرحمه الله في «التذكرة» بقوله: «ولا يقول لما رآه الشيخ وكان خطأ: هذا خطأ، ولا هذا ليس برأي، بل يحسن خطابه في الرد إلى الصواب، كقوله: (يظهر أن المصلحة في كذا)، ولا يقول: (الرأي عندي كذا)، وشبه ذلك». وقال أيضاً: «وإذا ردَّ الشيخ عليه لفظه، وظن أن ردَّه خلاف الصواب، أو علمه: كرر اللفظة مع ما قبلها لينتبه لها الشيخ». وقال: «أو يأتي بلفظ الصواب على سبيل الاستفهام فرمما وقع ذلك سهواً، أو سبق لسان لغفلة، ولا يقل: (بل هي كذا)، بل يتلطف في تنبيه الشيخ لها، فإن لم ينتبه قال: فهل يجوز فيها كذا».

والثاني: إسرار النصيحة، وعدم التشهير. قال الفضيل يرحمه الله -كما في «الفرق بين النصيحة والتعير» لابن رجب-: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير».

وقال ابن المبارك يرحمه الله: «كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره، أمره في ستر ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره، ويؤجر في نهيه. فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره: استغضب أخاه، وهتك ستره». «وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين والمتسبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتدين، فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم التعاون على البر والتقوى، والسعي في إعانة بعضهم بعضاً في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين، وعدم إشاعة غلطاتهم، والحرص على تنبيههم بكل ممكن من الوسائل النافعة، والذب عن أعراض أهل العلم والدين، ولأريب أن هذا من أفضل القربات»، قاله ابن سعدي يرحمه الله.

وفي «السير» للذهبي يرحمه الله، أن يحيى بن معين قال: «ما رأيت على رجل خطأ إلا سترته، وأحببت أن أزين أمره، وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين له خطاه فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلا تركته».

وعن سفيان أنه قال: «جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل، وعنده قوم، فسارّه بشيء ثم انصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفت أمس وأنت تصلي».

تنبيه:

قد يترك التلطف والإسرار في حالات مستثناة، ووفق ميزان كشف عنه الشاطبي يرحمه الله في «الموافقات» بقوله: «أنك تعرض مسألتك على الشريعة؛ فإن صحّت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدّ ذكرها إلى مفسدة: فاعرضها في ذهنك على العقول؛ فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها؛ إما على العموم إن كانت مما تقبله العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم.

فإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ: فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية».

فائدة

قال الإمام ابن رجب يرحمه الله في «الفرق بين النصيحة والتعير»: «وإذا كان مراد الرادّ على العالم إظهار عيبه وتنقصه، وإظهار قصوره في العلم ونحو ذلك؛ كان محرماً، سواء كان رده ذلك في وجه من ردّ عليه أو في غيبته، وسواء كان في حياته أو في موته، وهذا داخل فيما ذمّه الله تعالى في كتابه، وتوعّد عليه من الهمز واللمز، وداخل أيضاً في قول النبي ﷺ: (يامعشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف بيته).

وهذا كله في حق العلماء المقتدى بهم في الدين، فأما أهل البدع والضلالة، ومن تشبه بالعلماء وليس منهم، فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبهم تحذيراً من الاقتداء بهم.. والله أعلم.

ومن عُرِفَ منه أنه أراد برّدَه على العلماء: النصيحة لله ورسوله، فإنه يجب أن يُعامل بالإكرام والاحترام والتعظيم، كسائر أئمة المسلمين الذين سبق ذكرهم وأمثالهم ومن تبعهم بإحسان، ومن عُرِفَ أنه أراد برّدَه عليهم التنقيص والذم، وإظهار العيب، فإنه يستحق أن يقابل بالعقوبة ليرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرذائل المحرمة.

ويُعرف هذا القصد تارة بإقرار الراذ واعترافه، وتارة بقرائن تحيط بفعله وقوله.

وبهذا يتم (أدب التتلمذ)، فلهذا أيها الطالب نفسك، وانظر إلى عيبي فأصلحها، أعاننا الله وإياك على القول بالعمل، وعلى النصيح بالقبول. وعند ذلك يُحمد المسرّى، ويشكر المسعى، والله الحمد في الآخرة والأولى، وصلى الله وسلم على عبده المصطفى.

